باب الاجتماع والآداب

مصاب مصر بقاسم بك أمين

يموت كل يوم خلق كثير فيخلفهم مثلهم فتمحي الأمة وتصبح وكأنها لم تفقد أحداً . ولكن في الناس أفراداً امتازوا بالمزايا النادرة في قومهم فأولئك اذا مات الواحد منهم يشعر أهل البصيرة من أمتهم بأنهم فقدوا من لا يقوم مقامه غيره ولا يعمل عمله سواه . ومن هؤلاء الأفراد من فقدته مصر اليوم ألا وهو قاسم بك أمين القاضي بمحكمة الاستئناف الأهلية ونائب رئيس إنشاء الجامعة المصرية ومؤلف كتابي « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » — اغتالته المنية فجأة (في ٢١ من هذا الشهر) فلم تنذره بمرض ولا سقم بل لم تنذر عقلاء البلاد ليعدوا لهذا الخطب عدته ، ويأخذوا للمصاب أهبته ، بتوطين النفس على الصبر ، وتوجيه قواها الى الجلد أو التجلد ،

امتاز قاسم بك أمين بمعظم المزايا التي تعوز المصريين في سبيل الحياة الاستقلالية التي ولوا وجوههم شطرها

امتاز باستقلال الفكر وجودة الرأي وصفاء الذهن وسعة الخيال وقوة الإرادة والعدل في الحكم والوفاء في الصداقة والإخلاص للبلاد وكان مع هذا من علماء الحقوق والأخلاق والاجتماع والفلسفة العقلية وقد وجه همته في السنين الأخيرة الى فرع من فروع هذه العلوم وهو ترقية البيوت (العائلات) بتعليم النساء وتهذيبهن فلم يكتف بكتابيه فيه بل جعله همه الأكبر الى أن وافته منيته ولسانه رطب بذكر تهذيب النساء وتمدينهن وتمني مشاركة الفتيات المصريات للفتيان في محافل العلم والأدب. قال ذلك في خطبة فرنسية ألقاها في نادي المدارس العليا قبل وفاته بساعة أو ساعتين

كان قاسم بك أمين يعد في استقلاله وفي الحرص على ترقية بلاده من طبقة يعد رجالها على الأنامل وهم أصدقاء بعضهم لبعض ، مات إمامهم وكبيرهم فكر

أكثرهم على أثره : مات الأستاذ الإمام فتلاه صديقه علي بك فخري أحد أركان النهضة الوطنية العاملين في ترقية القضاء والمحاكم الأهلية فحسن باشا عاصم المصلح في القضاء وفي المعية ، وقطب إدارة الجمعية الخيرية الإسلامية ، فحسن باشا عبد الرازق الذي كان في مجلس الشورى هو الثبان ، بعد البدء الذي هو الأستاذ الإمام ، وهذا قاسم بك أمين خامسهم فلا غرو اذا تفاقم بالرزية به الخطب ، وعظم على البلاد به الكرب ، فانه كاد يتحقق به قول الأستاذ الإمام ، ان الأمة مصابة بالعقم وقحط الرجال ، فللأمة ان تمثل اليوم بقول ابن الفيه :

والموت نقاد على حكمه جواهر يختار منها الجياد

فقد كنا نقول ان هذا البيت من الشعريات ، وصرنا نقول اليوم انه من المشاهدات ، ولا ننسى ان مصر فقدت أيضاً في هذه المدة القليلة الشيخ أحمد أبا خطوة نابغة الأزهر وابراهيم بك اللقاني الذي كاد يكون في آخر عمره منسياً لطيلولة المرض بينه وبين العمل وهو في مقدمة كتاب مصر وخطبائها ومن أركان النهضة الجمالية الأولى فيها وكان كلا الرجلين من أصدقاء الأستاذ الإمام أيضاً فيا لله ما كان أشأم فقده على هذه البلاد فقد ذكرني بما تتابع بعده من فقد خيار الرجال قتل عمر بن الخطاب إذ فتح على المسلمين باب الفتنة في السلطة فقتل بعده عثمان وعلي (رضي الله عنهم أجمعين)

كمل للأستاذ الامام قوة الفكر والنظر ، مع القدرة والمرانة على القول والعمل ، وكان حسن عاصم أقوى في العمل ، منه (اي من نفسه) في القول والنظر ، وأما قاسم أمين فكان نظرياً أكثر ما كان عملياً ، فكان يسبح في بحر لجي من الفكر ، ويطير في جو واسع من الخيال ، فيؤلف بين الحكم العقلية ، وبين التخيلات الشعرية ، فلهذا كان لمكتوبه من التأثير وقوة الجاذبية ، ما جعله في مقدمة كتاب العربية ، على قلة اشتغاله بفنونها ، وتحصيلها ، وما ذاك إلا ان كلامه يشبهه في كون روحه أكبر من جسمه ، ومعناه يفيض الجمال على صورته ، حتى كاد يكون فكراً مجرداً ، أو خيالا متوهما ، كان قاسم من الهائمين في رياض الجمال المعنوي فكان ذلك يرفعه أحياناً عن عالم المادة وما فيه النصب والتعب والمصائب في المال والولد والصديق فيهون عليه

ما أصابه من ذلك ويفيض عليه الجلد والصبر ، ويخيل لي ان لو طال عمره ، وقل عمله ، واستراح باله ، لانتهى أمره بفلسفة عالية تظهر على لسانه ، وتفيض من قلمه ، فتروي أرض مصر بالحكم الجليلة ، في غلائل من الشعريات الجميلة ، وناهيك بما في اجتماع الحكمة والشعر ، من تربية الشعور والفكر ،

على ان مافي هذه الطريقة من الخطإ في الحكم قد يسر انتزاعه من تمكن فيه فإن الفكر يتحد فيه مع الوجدان ، اتحاداً يقل أن يفيد معه البرهان ، لذلك كان لقاسم آراء في فلسفة الأديان ، ومستقبل الانسان ، تعد عند المنطقي من الخياليات ، وهو يراها من الحدسيات أو الوجدانيات ،

كان فقيد مصر اليوم من أعضاء الجمعية الخيرية الإسلامية الأولين ولكن خدمته لها كانت بالرأي لا بالعمل ، أما العمل الذي كان يتوق اليه ، ويتمنى لو تيسر له ، فهو ان يؤسس ولو بماله — ان وجد المال — مدرسة لتربية البنات المصريات على ما يحب ويرى انه يرقي هذه البلاد ،

كان قاسم كنزا مخفيا لا يعرفه الا اصدقاؤه وكان اول شيء عرف به في عالم الادب رده على الدوق دركور فيما كتبه من الانتقاد على البيوت بمصر لا سيما مسألة الحجاب وسوء حال النساء المسلمات . كتب الدوق في ذلك كتابا باللغة الفرنسية فرد عليه قاسم باللغة الفرنسية وقد ذكر لنا غير واحد ان عبارته في رده كانت كعبارة كتاب فرنسا البلغاء . وكان قلمه في ذلك الرد يتدفق غيرة وحماسة وقد بين فيه مالحجاب من الفائدة وشنع على مافي اوروبا من التبذل والتهتك ومجارة الاعراض

واخبرني قاسم انه كان يوم اطلع على ما كتبه الدوق دركور غافلا عن حال النساء بمصر فاله ذلك النقد والتشنيع فاندفع الى الرد بوجدان الغيرة وبعد أن شفى غيظه وارضى غيرته بذلك عاد الى نفسه وفكر في الامر فرأى ان كثيراً من العيوب التي عاب الدوق بها البيوت المصرية صحيح في نفسه فبعثه ذلك الى درس هذه المسألة قائلا في نفسه انه لا ينفعنا اذا كان العيب فينا ان نرد على من يعيبنا ونبحث عن عيوب قومه وانما يجب علينا ان نبحث عن عيبنا فنعرفه ونسعى في ازالته . وطفق يبحث ويسأل ويفكر في حال البيوت بمصر ويقرأ ما كتب الافرنج في شأن النساء

وانتهى به البحث والتنقيب الى تصنيف (كتاب تحرير المرأة) الذي هز مصر هزة شديدة وشغل جرائدها في تقريظه ونقده زمنا طويلا وبعث همة غير واحد من حملة القلم والطرابيش جميعا الى التصنيف في الرد عليه وبذلك طار صيت قاسم بك أمين في الآفاق وعرف اسمه في الشرق والغرب وعد من المصلحين الاجتماعيين

ثم ألف كتابه (المرأة الجديدة) لتعزيز رأيه وتفنيد آراء خصومه فكان دون كتاب تحرير المرأة مادة وفائدة وتحريراً وتأثيراً على انه فوقه صراحة في المقصد وحرية في القول المخالف لرأي الجمهور وميله

وقد تولى في السنتين الأخيرتين من عمره الاشتغال بتأسيس « الجامعة المصرية » فلم يدخر وسعا ، ولم يأل جهداً ، وكان مناط الأمل ، في إنجاح هذا العمل ، وأي مصاب ترزأ به البلاد أشد من فقد رجالها عند ما تتم استعدادهم ، ويكمل رشادهم ، وتعرف الناس قيمتهم ، ويشرعون في الاعمال الكبيرة ، التي يرجى نهوضهم بها ، وينتظر نجاحهم فيها ؟ ؟ فهذا ما ضاعف الحزن على فقيد مصر اليوم

حزن العقلاء على قاسم لذاته وما تحلت به ذاته من المزايا العالية ، وضاعف حزنهم عليه أن كان مصاب البلاد به قريب العهد بمصابها بأصدقائه من رجال الاستقلال ، وما يرقي الامة من الأعمال ، وضاعفه مرة أخرى أن كان في الوقت الذي بدأ فيه بعمل عظيم ، وأنشأت النابتة تعرف من فضله ما يعرف الكهول والشيوخ من أهل المعرفة والفضل

يموت الرجل فيبكيه الاهل ويندبه النساء ولكن قاسماً بكى عظماء الرجال ، وأقدرهم على التجلد والاحتمال ، وندبه مثل سعد باشا زغلول وفتحي باشا زغلول وإنما ارادا ان يؤبناه فكان تأبينهما ندبا وتعدادا ، وبكاء ونشيجا ، أبكى معهما جميع من بلغ القبر من المشيعين ، وذلك مالم يعهد لسواه من الميتين

وجملة القول فيه انه يصدق عليه ما قاله هو في تأبين الأستاذ الامام من أنه لا يوجد في الأمة من يملأ الفراغ الذي كان يشغله ، فرحمه الله تعالى رحمة واسعة وأحسن عزاء أهله وأصدقائه ووطنه فيه ،

مصافحة السوريين للمصريين

يوجد في مصر الأوربي من انكليزي وفرنسي الخ والأمريكي والهندي والفارسي والارمني والمغربي من تونسي وجزائري ومراكشي والعثماني من تركي وكردي وعربي ومن العرب الحضرمي واليمني والحجازي والعراقي والسوري . ولم نر صنفاً ممن ذكرنا ومن لم نذكر من الأصناف أقرب إلى المصري من السوري فهو جار له في بلاده وموافق له في لغته وأكثر عاداته مع كونه عثمانياً مثله ولكننا على هذا كله لم نر المصري في مناظرة أو منافسة مع صنف من أصناف البشر الذين تضمهم بلاد مصر إلا مع السوري فما هو سبب ذلك ؟

يرى من دقق النظر ان السبب في هذا هو ذلك القرب نفسه فان السوري لما كان صنوا المصري امتزج به امتزاج الماء بالراح وشاركه في عامة شؤونه من مأكله ومشربه وملبوسه وجنده وهزله فما من سوري في هذا القطر إلا وله من الأصدقاء المصريين مثل ماله من السوريين أو أكثر. ومن طبيعة المنافسة ان تكون بين المختلطاء لا تكون بين البعداء فالأفراد ينافسون اخوتهم وأقاربهم وجيرانهم ، وأهل البلد ينافسون أقرب البلاد اليهم وكذلك أهل المديريات فأهل الأقطار فأهل الممالك

قد كانت المنافسة الأولى بين المصريين والسوريين في أعمال الحكومة ثم ضعفت أو تلاشت وخلفتها المنافسة في الصحافة أو السياسة . فكانت بين المقطم والمؤيد ثم بين المقطم واللواء . وحقيقة هذه المنافسة انها منافسة أفراد لا أصناف اذ رأي المقطم في السياسة ليس هو رأي السوريين وإنما هو رأي أصحابه وأول من قارعهم فيه صاحب جريدة الاهرام من السوريين . ولكن اللواء كان يرد عليهم من حيث انهم سوريون ودخلاء فكان ذلك من قبيل تعليق الحكم بالمشتق وهو كما قال علماء الاصول يؤذن بعلية ما منه الاشتقاق . أعني ان رد اللواء على أصحاب المقطم من حيث هم مهاجرون إلى سوريا ودخلاء في مصر يفيد أن علة

ما يرمونهم به من خيانة مصر هو كونهم سوريين . فلو كان الأمر كما يدعي — وهو ليس كذلك — لكان كل سوري خائنا لمصر اولكان مجموع السوريين كذلك . وهذا باطل لانه مبني على اصل باطل ولكنه سري في اوهام كثير من الناس لا سيما الاغرار . وهذا ماعناه حافظ بقوله

لولا اناس تقالوا في سياستهم منا ومنهم لما لمنا ولا عتبوا

ونحمد الله ان كلا من المقطم واللواء اللذين يعنيهما حافظ قد رجع — مع اصراره على أنه كان حسن النية — عن الخطة التي كانت تدعو اوكادت تجعل المنافسة بين جريدتين سببا للتعادي بين شعبين كل منهما عون للآخر وشريك له في كل مقومات الحياة حتى أوشك ان يصدق في ذلك ماقيل من ان سوء التفاهم كثيرا مايكون اضر من سوء القصد

لقد حسن في هذه الفرصة ماقام به سليم افندي سركيس من تأليف جمعية من خيار السوريين علما وأدبا وجمع طائفة من القوم منهم ومن غيرهم من السوريين بالاكتتاب لاجل دعوة جماعة من خيار المصريين علما وأدبا الى الاحتفال باسم السوريين لاكرام حافظ افندي ابراهيم الشاعر المصري الشهير

ولما كان الغرض من هذه الحفلة موادة السوريين للمصريين كانت الخطب والقصائد التي اشرنا اليها في الجزء الماضي ممثلة لذلك احسن تمثيل وقد وقع ذلك موقعه الذي يستحقه فأثنت الصحافة المصرية كلها كالصحف السورية على سليم افندي سركيس وأبدت الغرض من الاحتفال بالكلم الطيب في التأليف بين العنصرين اللذين هما بمنزلة الأخوين

(تصحيح غلط) في السطر ١٦ من ص ١٢٤ « ٥ وعن » محله قبل كلمة « غضة » بينها وبين الواو قصير « ٥ وعن غضة » فضاعة الخ وفي السطر الخامس من ص ١٢٥ من الجزء الماضي « عدوه غريبا » وقد سقط من قبلها هذه الجملة « عدوه فصيحا وما كان قليل الدوران على ألسنتهم » . وفي هذا الجزء أغلاط مطبعية أخرى مدركة كـ كلمة « محمده » في س ١٧ ص ٩٣ وصوابه « محمد عبده » ومنها كلمة « اذا » في س ٣ ص ١٠٦ وصوابها « إذ »

الفصل الرابع (*)

(مقام النساء في قوم خديجة)

تلك كانت أحوال قوم خديجة في نظام اجتماعهم ذلك ولم يكن مقام المرأة فيهم مقاما سهيا بل كان لها لديهم مقام كريم وجل ما عرف عنهم من انحطاط مقام المرأة انهم كانوا يكرهون البنات وانهم كانوا يئدونهن أي يدفنونهن في التراب ومن على الحياة (١٦: ٥٨ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ٥٩ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

هذا ما عرف عنهم ومن أخذ هذا الامر على ظاهره واطلاقه يستخف بهؤلاء القوم لان انحطاط قيمة المرأة ومقامها عندهم دليل على انحطاطهم ولكن أخذ الامر على ظاهره واطلاقه ليس من شأن الذين يحبون معرفة الحقائق

ان كل بلد فيها الفقراء وذوو اليسار، وفيها الحق واولو الألباب، وفيها القساة وأهل الرحمة. فليس من العقل ولا العدل ان يجعل عمل بعض الحمق او القساة او الفقراء في بلد مثالا ومرآة لأعمال مجموع أهل البلد كان في مكة فقراء وحمق وقساة كما هو الحال في سائر البلاد وكان

(*) من رواية خديجة ام المؤمنين

أناس قليلون من هذه الاصناف يأتون هذا العمل الفظيع نعني الوأد (دفن البنات في المياة في سن الطفولية) فلا ينبغي أن يقال بدون تقييد إن القوم الذين نشأت منهم سيدتنا هذه كانوا يئدون البنات . ان قومنا نبغت فيهم مثل هذه السيدة لا يعقل ان يكونوا قتلة بنات كلا انهم لم يكونوا يقتلون الاجساد ، ولم يكونوا يقتلون منهن العقول والارادات ، واما الذي نقل عنهم فهو عمل قريب كادون لا يذكرون من فقرائهم او حقائهم او قتلتهم

ولم يكن الذين يئدون بناتهم يأتون هذا العمل الفظيع تغيظاً من هذه النسمات البريئة او احتقارا لجنس المرأة كما يلوح لاول وهلة بل كان يدوقهم الى ذلك فساد في الخيال وضعف عظيم في الطبيعة . وان الخيال الفاسد يزين المنكر حتى يعقله صاحبه من المعروف كما يشاهد كل واحد منا كثيرا

كان منهم فقراء يزين لهم خيالهم الفاسد ان فتياتهم اذا ظلت في ميدان الحياة ربما نالها ضيم من فقرهم وربما عجزوا عن ان يكرمنهن بنفقة تساوين بأترابهن ، من ذوي قرباهن او جوارهن ، فيرون موارتهن في التراب ، خيرا لهن من بقائهن دون الاترابهن ،

لا نكران للحق ان هذا خيال باطل ولا سيما عند المؤمنين ولكن هذا الخيال الباطل لم يوح الى صاحبه ان الفتاة شجرة خبيثة يجب اجتثاثها قبل النمو ويستحسن حرمان الوجود من ثمراتها وانما زين له سوء عمله هذا من طرق اخرى هي كرامة فتاته

يتخيل ذلك المسكين ان فتاته ان عاشت تعيش مثله في غصص تذيب الفؤاد ولوعة من الجلمود ، وكرب تسود الوجوه البيض وتبيض الشعور السود ، فيزين له خياله ان يمحي كربته فلذة كبده من مثل هذه الحياة التي بلاها فقلاها وان يقي بألم ساعة عند توديعها وتسليمها الى الابد آلام ضنين يراها فيها كثيرة النصب قليلة التعيب كما يقي أحدهم بألم الكي آلام سقم من سقم

وكان منهم حتى توسوس لهم شياطين الخواطر بأن الفتاة ربما وقعت في يد من لا يرعى لها ولها حرمة . ولو قضي على كل البشر بمثل هذه الوساوس لأذنت الدنيا بالانقضاء ولكن الوجود لم ينشأ الا ان تكون الدنيا على هذا النمط من الاستمرار فلذلك لم يوجد لهذه الوساوس سلطانا على قلوب البشر الا قليلا ممن بلغنا شيء عنهم من هذا القبيل

ساء ما يزين لهؤلاء الفقراء والحمق الذين كبر تعييرهم من القسوة وسم تعييرهم من الفقر والحمق فلو علم المعدم ان اليسار ليس مختصا في يوم تعيسة واشخاص مختصة وانما يتاح للعاملين المحسنين مع الظروف المناسبة ، وان قيمة كل امرىء ما يحسنه ، وان ليس عليه الا ان يعمل بالمعروف عند قومه ويصبر قليلا حتى يتاح له ما يقوم به شأنه ، لما سول عليه ان يقصف بيديه غصنا منه أنبته الله ولا لذة أكبر من تربيته وتنميته

ولو علم الاحمق ان الفرار من توهم الصور نهاية الجبن وغاية الخذلان وشر أقصى درجات الخسران لرأى انه جدير بالبكاء على حظه من ضعف النفس

وعسيات ان يكون قوم «خديجة» على هذا النمط من ضعف النفوس

وهم المعروفون بالشجاعة والاقدام . وأي قوم تطيب لهم الحياة اذا كانوا لا يرون سلامة حرمهم الا بافنائها ؟ وانى يجد الشخص الاطمأنينة اذا كان دأبه الهرب من غير ما طلب ؟

أما انهم كانوا يكرهون البنات اذا بشر أحدهم بها فلا يستطيع أحد انكاره لأن القرآن المجيد هو الذي سجل هذه الحقيقة التاريخية وقد سرى هذا الى نفوسهم من شدة احتياجهم الى البنين الذين سيكونون المدافعين في ذلك المجتمع القائم بنفسه قيام المجتمعات الكبيرة . وليس معناه ان البنت تظل طول دهرها مكروهة او ان النساء لا قيمة لهن ولا قدر عند أولئك القوم. ما ذنب القوم اذا كان نفر من فقرائهم وحمقاهم قد ضعفت نفوسهم فاستسلموا الى الاستراحة مما يلذ للكرام التعب فيه ؟ وما اجرامهم الى الانسانية من بعد ان يقوم أمجادهم بافتداء كثير من الفتيات اللاتي تصدى آباؤهن لوأدهن من الفقر ؟

ان العرب كافة وقريشا خاصة كانوا يعزون المرأة ولا يهينونها وقد أعطوا النساء كل ما لهن من الحقوق في نظر العدل ولم ينسوا ان المرأة كالرجل هي انسان يحمل دماغا فيه إدراك وأن لهذا الانسان المؤنث نفساً كنفس ذلك الانسان المذكر تغضب وترضى وتنعم وتشقى فأعطوا دماغها ونفسها حقهما

وقد رووا لنا ان هند بنت عتبة وهي من قوم سيدتنا «خديجة» جاءها أبوها يشاورها في رجلين من قومها رغبا الزواج بها فقالت صفهما لي فقال « اما أحدهما ففي ثروة وسعة من العيش ان تابعتيه تابعك، وان ملت عنه حط اليك، تحكمين عليه في أهله وماله، واما الآخر فموسع عليه،

منظور اليه، في الحسب الحسيب، والرأي الاريب، مدره أرومته، وعز عشيرته، شديد الغيرة، لا ينام على ضيمة، ولا يرضى عضاه عن أهله» (*) فقالت يا أبت الاول سيد مضياع للعرة فما عست ان تلين بعد ابائها، وتضيع تحت جناحه اذا تابعها بعلها فأثمرت، وخانها أهلها فأمنت، فساء عند ذلك حالها، وقبح عند ذلك دلالها، فان جاءت بولد أحمقت، وان أنجبت فمن خطأ ما أنجبت، فاطو ذكر هذا عني ولا تسمه عليّ بعد. وأما الآخر فبعل الفتاة الخريدة، الحرة العفيفة، والي لاخلاق مثل هذا لموافقة، فزوجنيه، فزوجها الثاني وكان هو أبا سفيان بن حرب فولدت منه معاوية مؤسس دولة بني امية الشهيرة وأحد نجباء العرب ودواهيهم

فهكذا كان مقام المرأة في قوم سيدتنا «خديجة» لا يفتات أهلها عليها في حقها وهكذا كان رأي ذوات الحجى والزكانة منهن

ولقد كان كثير من نساء العرب يشاركن في السياسة والأمور العمومية، وناهيك أن الحرب التي ظلت مستعرة نحواً من اربعين سنة بين بني ذبيان وبني عبس لم يتفكر في اطفاء نارها الا امرأة ولم تتمكن من اطفائها الا بما لها من المكانة وحسن الرأي وذلك ان بسوسة بنت أوس ابن حارثة بن لام الطائي لما زوجها ابوها من الحارث بن عوف المري وأراد ان يدخل عليها قالت انتفرغ للنساء والعرب يقتل بعضها بعضا تعني بني عبس وبني ذبيان فقال لها ماذا تقولين قالت «اخرج الى هؤلاء القوم فأصلح بينهم ثم ارجع اليّ» ففعل وعرض الامر على مرة بن سنان فاستحسن ذلك وقاما كلاهما بهذا الامر فشيا بالصلح ودفعا الديات من أموالهم

(*) كناية عن العفة

وهنالك من اشتهرن من العربيات في السياسة منهن الاتي كن من شيعة الامام علي ايام مناصبة معاوية له كسودة بنت عمارة بن الاشتر الهمدانية، وبكارة الهلالية ، والزرقاء بنت عدي بن قيس الهمدانية ، وام سنان بنت جشمة بن خرشة المذحجية ، وعكرشة بنت الاطرش بن رواحة ، ودارمية الحجونية ، وام الخير بنت المريش بنت سراقة البارقي . وأروى بنت الحارث بن عبد المطلب الهاشمية .

وفدت سودة على معاوية بعد موت علي فاستأذنت عليه فأذن لها فلما دخلت عليه سلمت سودة فقال لها كيف انت يا ابنة الاشتر؟ قالت بخير يا امير المؤمنين . قال لها انت القائلة لاخيك :

شمر كفعل أبيك يا ابن عمارة ... يوم الطعان وملتقى الاقران
وانصر عليًا والحسين ورهطه ... واقصد لمنبر وابنها بهوان
ان الامام أخا النبي محمد (*) ... علم الهدى ومنارة الايمان
فقد الجيوش وسر أمام لوائه ... قدما بابيض صارم وسنان

قالت يا امير المؤمنين « مات الرأس، وبتر الذنب ، فدع عنك تذكار ما قد نسي » فقال « هيهات ليس مثل مقام أخيك ينسى » قالت « صدقت والله يا امير المؤمنين ما كان أخي خفي المقام ، ذليل المكان ، ولكن كما قالت الخنساء :

وان صخرًا لتأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار

وبالله اسألك يا امير المؤمنين انفاذي مما استعفيته » قال : قد فعلت فقولي حاجتك : فقالت يا امير المؤمنين « انك للناس سيد ، ولأمورهم

(*) اخوة النبي

مقلد، والله سائلك عما افترض عليك من حقنا، ولا نزال نقدم عليك من يهض بعزك، ويبسط بسلطانك، فيحصدنا حصاد السنبل، ويدوسنا دياس البقر، ويسومنا الخسيسة، ويسألنا الجليلة، هذا ابن ارطاة قدم بلادي، وقتل رجالي، وأخذ مالي، ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة، فاما عزلته فشكرناك، واما لا فعرفناك، فقال معاوية «اياي تهددين بقومك والله لقد هممت ان اردك اليه على قتب أشرس فينفذحكمه فيك» فسكتت ثم قالت :

صلى الاله على روح تضمنه ... قبر فأصبح فيه العدل مدفونا
قد حالف الحق لا يبغي به بدلا ... فصار بالحق والايمان مقرونا

قال : ومن ذلك : قالت : علي بن ابي طالب رحمه الله تعالى : قال ما أرى عليك منه أثراً قالت : بلى أتيته يوما في رجل ولاّه صدقاتنا فكان بيننا وبينه ما بين النفث والسمين فوجدته قائماً فانفتل من الصلاة ثم قال برأفة وتعطف ألك حاجة فأخبرته خبر الرجل فبكى ثم رفع يديه الى السماء فقال « اللهم اني لم آمرهم بظلم خلقك، ولا ترك حقك » ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب فكتب فيه « بسم الله الرحمن الرحيم قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ، بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ » اذا أتاك كتابي هذا فاحتفظ بما في يديك حتى يأتي من يقبضه منك والسلام» قال معاوية اكتبوا لها بالانصاف لها والعدل عليها فقالت « ألي خاصة ام لقومي عامة » فقال « ما

انت وغيرك ، قالت « هي والله الفحشاء واللؤم ان كان عدلاً شاملاً والا يسعني ما يسع قومي » قال اكتبوا لها بحاجتها

ووفدت بكارة الهلالية ايضا على معاوية بعد موت علي فدخلت عليه وكان يحضره عمرو بن العاص ومروان وسعيد بن العاص فجعلوا يذكرونه بأقوالها التي قالتها في مشايعة علي ومعاداة معاوية فقالت « أنا والله قائلة ما قالوا وما خفي عنك مني أكثر » فضحك وقال ليس يعدمنا ذلك من برك وكتب معاوية الى عامله بالكوفة ان يوفد اليه الزرقاء ابنة عدي بن قيس الهمدانية مع ثقة من ذوي محارمها وعدة من فرسان قومها وان يوسع لها في النفقة فلما وفدت على معاوية قال « مرحبا قدمت خير مقدم قدمه وافد كيف حالك ؟ فقالت بخير يا أمير المؤمنين ثم قال لها « ألست الراكبة الجمل الاحمر والواقفة بين الصفين تحضين على القتال وتوقدين الحرب فما حملك على ذلك فقالت يا أمير المؤمنين « مات الرأس وبئر الذنب ، ولا يعود ماذهب ، والدهر ذو غير ، ومن تفكر أبصر ، والامر يحدث بعده الامر » قال لها أتحفظين كلامك يومئذ ؟ قالت « لا والله لا أحفظه » قال لكني أحفظه وتلا عليها خطبة من خطبها التي هي في منتهى البلاغة ثم قال لها والله يا زرقاء لقد شركت عليا في كل دم سفكه » قالت « احسن الله شارتك وأدام سلامتك ، فذلك يبشر بخير ويسر جليسه » قال « أو يسرك ذلك ؟ » قالت « نعم والله » فقال « والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب من حبكم له في حياته ، اذكري حاجتك » فقالت يا امير المؤمنين آليت على نفسي ان لا أسأل أمير المؤمنين عليه أبدا . ومثلك من أعطى من غير مسألة . وجاد من غير طلبة » قال صدقت وامر لها وللذين جاؤا معها بجوائز .

ووفدت عليه ايضا ام سنان بنت جشمة وعكرشة بنت الاطرش ، ولما حج سأل عن دارمية الحجونية فجيء بها اليه فقال لها « بعثت اليك لاسألك علام أحببت عليا وابغضتني ، ووالته وعاديتني ؟ » فاستحت فلم يفعل فقالت له « احببت عليا على عدله في الرعية ، وقسمه بالسوية ، وأبغضتك على قتال من هو أولى منك بالامر ، وطلبتك ما ليس لك بالحق ، ووالیت علیا علی حب المساکین ، واعظامه لاهل الدين ، وعاديتك على سفك الدماء ، وجورك في القضاء ، وحكمك بالهوى » ثم قال لها : يا هند هل رأيت عليا ؟ قالت « أي والله » قال فكيف رأيته ؟ قالت « رأيته والله لم يفتنه الملك الذي فتنك ولم تشغله النعمة التي شغلتك » قال فهل سمعت كلامه قالت « نعم والله فكان يجلو القلوب من العمى كما يجلو الزيت صدأ المسك » قال صدقت فهل لك من حاجة قالت « نعم تعطيني مئة ناقة حمراء » قال ماذا تصنعين بها قالت « أغذو بألبانها الصغار ، وأستحيي بها الكبار ، واكتسب بها المكارم ، وأصانع بها بين العشائر » قال « فان أعطيتك ذلك فهل أحل عندك محل علي بن ابي طالب ؟ قالت « سبحان الله أو دونه » فقال « اما والله لو كان علي حيا ما أعطاك منها شيئاً » قالت « لا والله ولا بربة واحدة من مال المسلمين »

وكذلك وفدت عليه أم الخير بنت حريش من الكوفة ووفدت عليه أروى بنت الحارث وجرى لها معه حديث من مثل ما تقدم

فهكذا كان مقام المرأة الدربية من أخوات سيدتنا القرشية ، وهكذا كان حظهن من الفصاحة والمصافحة ، ومبلغهن من المشاركة في الامور العمومية والاخذ بالاسباب ، والمشايعة لبعض الاحزاب ، وما أتينا الا باليسير توطئة لمعرفة مقام السيدة خديجة في قومها